الفصل الثاني عشر

وصلوا إلى المشفي جميعاً وصعدوا نحو آدم؛ فوجدوا الطبيب يحيى خارجاً من غرفة آدم يمسح عيناه؛ ففزعوا جميعاً! فأخذوا يسرعون ناحية الطبيب يحيى.. وصار منهم من هرع إليه.. ومنهم من أخذ يبلع ريقه.. وكلٌ ثَبُت نظره لا يطرفون خشية أن يكون حدث خطب ما.. فهم لا يدرون أي شيئاً ولا ماذا هنالك!

سألوا الطبيب يحيى:

_ ماذا هناك؟

فأجاب يحيى قائلاً:

_ حالته مزرية محزنة أليمة.. تأتيه حالة بكاء؛ فنبكي لها!

أخذهم الطبيب ومشوا نحو الغرفة.. وجدوه كما هو بل أسوء.. وجهه إلى الناحية الأخرى من الغرفة.. دخل عليه المحترم فرءاه عيناه أحدها شبه مغلقة والأخرى مفتوحة إلى النصف بسبب ما على جفونه من أشياء متكتلة.. كل ذلك وآدم آخذ في البكاء.. أحسَّ بالمحترم فأدار بصره ناحيته.. رأى المحترم وجهه فقال مشفقاً:

_ كيف أحوالك يا آدم؟

قال آدم باكياً:

_ لقد استحققت ما أنا فيه من المرض والعذاب.. قد وقع القول علي بالعذاب على ظلمي وبغي.

أخذ نفسه وهو يبكي بصعوبة وتقطع؛ فيا لها من معاناة! ثم أكمل قائلاً:

_ ثم ما هو منتظرُني في الأخرة من الجفاء والهجر وعذاب الجحيم!

عرفت وتقربت إلى ربي في معانتي تلك..وعرفت رحمته من تخفيفه العذاب عليَّ وكل الأسباب لا تجد فيها سبباً للرحمة أو التخفيف.. وكل هذا الألم والمرض لا يهم عندي؛ بل همي هو في الاخرة!

لـمَّا علمت أن الله سينساني يوم القيامة بسبب أنني قد افتريت الدناءة وجرحت الحياء والعظمة، وأنني قد وقعت في حرمات الله وحماه وهو الملك الكبير.. وكل ذلك وهو شاهد وصابر عليَّ.. مطلع على ما في نفسي ويعلمه كأنه العلن.. وهو الثاني لي عندما أكون وحيداً.. والثالث لنا إذا كنا اثنين.. ورابعنا إذا كنا ثلاثة.. هو معي أينما كنت كيفما كنت.. أنجاني من كل كرب مررت به حتى وأنا في ظلمي وهتكي الحياء وعدم مراعاتي العظمة؛ ثم إنني لم أرجو لله تعالى أي وقار رغم كل ذلك.

أخذ يبكي بكاءً مريراً.. ثم أكمل آدم قائلاً:

_ كل الأشياء تهون.. ولكن أن ينساني الله في حياتي الآخرة يوم القيامة حيث القرار؛ فذاك هو العذاب الأليم!

قالها متألماً حقاً؛ فامتلئت عيني المحترم بالدموع واغرورقت.. ثم اكمل آدم آدم:

_ يا أرحم الراحمين لا تنساني! كل شيء يهون إلا أن تنساني فهذا الذي لا يُطاق.. أعوذ بوجهك أن تنساني! _سالت عيني المحترم بالدموع_ لقد عرفت أن الحب كل الحب لك يا

من وجودنا فقط بك.. عرفت أن الحب كل الحب لك؛ لكني لا أجرء على أن أتفوه بذلك حياءً منك من الأفعال التي كنت أفعلها.. _أدار وجهه على بكاءه إلى الناحية الأخرى_ أعوذ بك مما صنعت!

أخذ المحترم بركن، ونظر من النافذة ناحية الحديقة.. ثم خرَّ حتى وصل بذقنه على صدره.. وقال داعياً وناظراً إلى السماء وقد أسرَّ دعائه في نفسه:

_ "يا بديع السموات والأرض ومن فيهما بالحق ولا حاجة لك بخلقهما!

أنشئت كل شيء وأحييت كل حي.. أنشئت كل ذلك ولا أدري كيف تم التوصل إلى كل ذلك؛ فليس أحد بسابقك حتى تأخذ منه.. كل خلق وفعل يعود إليك سبحانك!

أكاد أذوب ولا أتحمل يا عظيم! كيف توصلت إلى أن كل شيء خلقته سيخرج إلى ما هو عليه بصورته وأفعاله؟

يا عليم! كيف توصلت إلى أنني سوف أكون؟ وكيف توصلت وأخرجت الحروف أ ل ص س ي.. كيف عرفت كل ذلك؟ كل ما أعلمه أنك أنت العليم تعرف كل شيء.

خلقت كل من وجد.. وخلقت من هو موجود.. وستخلق ما لا يُعلم ولا يُنتظر؛ ولكنك ستجعله وستكونه فإذا هو كائن؛ فأنت العليم الحكيم.. جعلت وجاعل وستجعل في هذه الحياة من قد اخترته تنظر كيف يصنع.. أحسنٌ أم سيءٌ سوف يعمل؟

سيستحق فريق من الناس أن يكونوا في العذاب الأليم خالدين فيه بسبب ظلمهم.. وسيشهدون على أنفسهم أنهم كانوا ظالمين؛ فيا ويلهم!

وفريق أخير سيدخلون الجنة برحمتك فقط.. رحمتك التي أمسكتها عندك جميعاً؛ إلا جزءاً مأنزلته على تلك الأرض يترحم به من هم عليها.. يتراحمون بهذا الجزء منذ الخلق الأول إلى آخر الدنيا بهذا الجزء فقط.. ثم أمسكت باقي الرحمة ليوم القيامة؛ ويا لوسعها!

سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب!

أصاب عبدك هذا _وأشار بقلبه إلى آدم_ ما أصاب من الذنوب والظلم والإفتراء.. فلم ينال إلا ما كان يفعل.. أيقن أنه قد أخطأ؛ فندم على أفعاله وطلب أن تقبل توبته فأنت التواب الرحيم.. مازال شر ما صنعه محيط؛ إلا أنك عفو غفور.. أخطأ وأنت شاهد عليه تراه وتسمعه.. فلمَّا أيقن بشهودك ورؤيتك؛ أصابه من الهم والحزن والضيق ما تعلمه وأنت رحيم!

استجب واعف عنه واجعله آية منك لمن خلفه.. اجعله آية بأن العذاب الأليم موجود وهناك عذاب أشد منه قادم.

أنت يا رحيم لا يتعاظم عليك ذنب في أن تغفره؛ فارحمه برحمة منك إليه وإلى غيره تكن آية فيحذروا وينتهوا ويتوبوا عما يفعلون إن كانوا ممن يسمعون سبحانك !"

وقد دع المحترم بذلك مناجياً ربه ويتخوفه ويحذر عِقابه.

* * *